

مظاهر ودلائل توحيد الألوهية

..... ومعناه: ألا يدعى إلا الله، ولا يرجى إلا الله وحده لا شريك له، ولا يستغاث بغيره، ولا يندرج لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل -أي- هذه أمثلة للعبادة، أمثلة من أنواع العبادة، أي: أن أمثلة هذه العبادات تكون لله وحده، لا يصرف منها شيء لمخلوق، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فمن صرف منها شيئاً لمخلوق فقد أشرك ذلك المخلوق، وجعله نداً لله -تعالى-. بدأ بالدعاء، ثم نبي بالرجاء، وثالث بالاستغاثة، ورابع بالذبح، وخمس -هنا- بالنذر، وهي أمثلة. والدعاء دليله قوله تعالى: { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ } وقوله: { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } وقوله تعالى: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } . وقد كثرت الأدلة في الأمر بدعاء الله -تعالى- ومعنى ذلك: أن يدعو الله -تعالى- في جميع حالاته، وقد بين الله -تعالى- أن الدعاء عبادة، قال تعالى: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي } لم يقل: عن دعائي، سمى الدعاء عبادة { عَنْ عِبَادَتِي } فدل على أن الدعاء عبادة، وقال في الآية بعدها بقليل: { فَلِئَلِّي يُنْفِثُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ } أولها: أعبد. ثانياً: تدعون. فدل على أن من دعا فقد عبد ذلك المدعو، دل على أن الدعاء عبادة، وقال تعالى عن إبراهيم { وَأَعْتَرَكُم مِمَّا تَدْعُونَ } ثم قال في الآية بعدها: { فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ } فالآية الأولى: تدعون. والثانية: يعبدون. فدل على أن الدعاء عبادة. وقد قسم العلماء الدعاء إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. وقالوا: إن دعاء العبادة يتضمن دعاء المسألة، ودعاء المسألة يستلزم دعاء العبادة؛ وذلك لأن دعاء المسألة الذي هو سؤال الله أن ترفع يديك وتقول: يا رب أسألك الغفران، أسألك الغنى عن خلقك، أسألك الجنة، أعوذ بك من النار، أسألك زوائد فضلك، أسألك غفرانك ورحمتك، أسألك عفوك وعافيتك. هذا دعاء مسألة؛ لأنك تسأل الله؛ ولكن معنى ذلك أنه عبادة، كيف كان الدعاء عبادة؟ يعني: السؤال؟ الجواب: أن الداعي متذلل، إذا عرفت أن العبادة هي الذل فالداعي متذلل، العرب تسمى كل شيء مذلاً معبداً، فيقول شاعرهم: تباري عتاقاً ناجيات وأنعتت وظيفا وظيفا فوق مور معبد ويقولون: طريق معبد -أي- مذلل بالأقدام، قد دللته الأقدام والحوافر والخفاف، ونحو ذلك -أخفاف الإبل ونحوها- فسمي مذلاً معبداً. والمملوك يسمونه عبداً؛ وما ذاك إلا أنه ذليل لسيدته، يعني: أنه لا يستطيع أن يخرج عن طواعية سيده، ولا عن ملكيته؛ فلذلك يسمى عبداً؛ لأنه متذلل. فالدعوى يعبدون الله -تعالى- عليهم أن يتذللوا حال أداء العبادة -عبادة بدنية أو قولية أو اعتقادية-؛ سواء كانت عبادة بالفعل أو بالفعل، إذا تعددت فإنهم يكونون -دائماً- في غاية الذل، يفسر شيخ الإسلام العبادة بأنها: غاية الذل مع غاية الحب. هذه هي حقيقة العبادة. وأما مثاله، أو تعريفها فإنه يقول: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الطاهرة والباطنة. فهذا تعريفها في العموم. ولكن.. لماذا سميت عبادة؟ لأن العابد يتذلل فيها. فأنت في الصلاة تتذلل، فإذا تذلت صارت صلاتك عبادة؛ لأنك تركت لله، والركوع تذلل؛ حيث إنك تحني ظهرك تواضعاً، وكذلك في السجود؛ حيث إنك تضع وجهك على الأرض التي توضع عليها الأقدام والأحذية ونحوها تواضعاً، وجه الإنسان الذي هو أشرف أعضائه، وفيه حواسه: سمعه وبصره وفمه وشمعه يجعله على الأرض؛ أليس ذلك تذلاً؟ أليس ذلك تواضعاً؟ فسميت عبادة. وكذلك حاله وقوفه يكون متذلاً، وحاله جلوسه يكون متذلاً؛ وأجل ذلك لا يصرف وجهه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقبل قلبه ويقبله ويسمعه وبصره ويعقله وبحركته، يقبل على ربه ويخشع ويخضع ويتواضع، كما مدح الله تعالى الذين هم بهذه الصفة { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } فيكون هذا حقاً هو التعبد الذي هو التذلل. فنعود، فنقول: الذي يسأل الله تعالى أليس متذلاً؟ إذن.. فسؤاله عبادة؛ لأنك إذا سألت الله -تعالى- وأنت معتز بنفسك فالذي يسأل الله وهو معتز ومترفع ومتكبر، لا يخشع في دعائه، ولا يتواضع لربه، ولا يسأله سؤال فقير، سؤال حقيير، يذل نفسه، لا يستجيب الله -تعالى- دعوته ولا يقبلها؛ حيث إنه لم ينكسر قلبه أمام ربه، ولم يطلب ربه دعاء رغبة؛ بل كأنه يقول: إن أعطيتني وإلا فلا حاجة لي فيك يا رب. العباد فقراء إلى الله -تعالى- وعليهم أن يظهروا الفقر، وأن يظهروا الاحتقار -يحقرؤا أنفسهم-. أما إذا تعززوا وترفعوا؛ فإنهم لا يعطون سؤالهم، ورد في الحديث القدسي: أن الله يقول: "أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي"، لذلك الذين يدعون الله -تعالى- وقلوبهم مخيبة، وقلوبهم منكسرة، وهم متذللون متواضعون، متضرعون متخشعون يرجى إجابة دعوتهم. ذكروا هذا -كما قرأتم- في باب صلاة الاستسقاء، يقولون: يخرج إلى الصلاة -صلاة الاستسقاء- متواضعاً متذلاً متضرعاً مخبتاً خاشعاً خائفاً راجياً متبذلاً في ثياب ذلة في حالة تواضع، منكسر القلب، منكسر الرأس، ذليلاً بين يدي ربه كأنه يمثل نفسه أنه العبد الفقير، لسان حاله يقول: يا رب أنا الفقير، أنا العبد الذي كسب الذنوب، وصدته الأمانى أن يتوب، نحن عبادك الذين خلقتهم والذين رزقتهم، وأنت مالكم، وأنت ربهم وخالقهم والمتصرف فيهم. يتمثل قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ } فمن دعا الله -تعالى- بهذه الصفة.. رُجِي أن يجيبه، وأما إذا دعا الله -تعالى- واستغاثوا به وطلبوه أن يعيظهم؛ وهم مع ذلك يظهرهم أنهم مستغنون عن فضله، مستغنون عن عطائه وعيظه، وكأنهم يقولون: إن حصل لنا الغيث وإلا فإنه لا حاجة لنا ولا ضرورة إليه، وكأنهم ليسوا مضطربين إلى عطاء الله -تعالى- ولا إلى فضله، فمثل هؤلاء قد لا يجابون، لا تجاب دعوتهم؛ وذلك لأنهم في حالة دعائهم ما كانوا متعبدين. دعاء المسألة يلزم منه التبعيد، أليس التبعيد هو التذلل؟ يلزم منهم أن يكونوا متذللين غاية التذلل؛ حتى يجيب الله -تعالى- دعوتهم ويعطيهم سؤالهم. يعترفون أولاً: بفقرهم، وفاقتهم، وشدة حاجتهم. ويعترفون ثانياً: بغنى ربهم، وبقدرته، وبرحمته، وبسعة مغفرته. ويعترفون -أيضاً- بأنهم خلقه، وهم ملكه، وهو المتصرف فيهم، وهم عبيده، وأنهم لا غنى بهم عن ربهم طرفة عين. فهذا حقيقة دعاء المسألة. وأما دعاء العبادة فإنه يعم كل القربات؛ فإنها تسمى دعاء، فنقول: الصلاة دعاء، والزكاة والصدقات دعاء، والصوم دعاء، والحج دعاء، والأذكار دعاء، والقراءة دعاء، والجهاد في سبيل الله دعاء. وكذلك الأعمال الخيرية المتعددة كالنصيحة دعاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء؛ ولكنه دعاء عبادة، ليس دعاء مسألة. فيدخل في قوله تعالى: { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُكَذِبِينَ } يدخل في قوله تعالى: { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } وإن كان هذه الآية سياقها يدل على دعاء المسألة { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } يعني: إذا دعوتهم الله دعاء مسألة؛ فادعوه حالة كونكم متضرعين، وأخفوا دعاءكم بينكم وبين ربكم. وكذلك قوله: { وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } هذا -أيضاً- دعاء مسألة، خوفاً من عذابه، ادعوه ألا يعذبكم، خافوا أنكم إذا لم تدعوه أن يقع بكم العذاب، خوفاً وطمعاً في أن يرحمكم وأن يعطيكم سؤالكم؛ ولكن في الآية إظهار التذلل، فتعم -أيضاً- دعاء المسألة ودعاء العبادة. ذكر العلماء أن دعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة بمعنى: أن فيه حقاً أنه يكون بلسان الحال داعياً، كل من عبد الله فإنه داع في نفس الأمر. إذا كان يعبد الله أية نوع من أنواع العبادة هو في الحقيقة يدعو الله؛ ولكنه بلسان الحال لا بلسان المقال؛ ولو سأله لنطق بما في قلبه. فلو قلت أنا لأحدمك: ما الذي جاء بك إلى هذا المسجد من مكان بعيد أو قريب؟ ما الذي أجلسك في هذه الحلقات؟ تنطق وتقول: أرجو ثواب الله، أرجو الأجر منه، أرجو مغفرته، أرجو جنته، أريد أن يشيني، أريد أن يحصل لي الأجر الذي ترتب على ذلك. سمعت قول النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: { من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة } فأنا أريد أن يسهل الله لي طريقاً إلى الجنة إذا سلكت هذا الطريق. نقول: تعلمك هذا هو دعاء عبادة أو دعاء مسألة؟ إنه دعاء عبادة؛ ولكن أنت في نفس الأمر ترجو الأجر، وهكذا أيضاً في بقية العبادات. فلو قيل لك: لماذا تحافظ على الصلاة؟ لماذا تتقدم إلى المساجد؟ لماذا تتقرب بانتظار الصلاة؟ وبالتالي قبل الصلاة وبعدها؟ وبالآذكار التي تأتي بها بعدها؟ ماذا تقول؟ لسان الحال يقول: إنني أرجو ثواب الله، وأرجو جنته، وأرجو مغفرته ورحمته، وأرجو السلامة من عقابه، وأرجو مغفرة الذنوب وستر العيوب، وأرجو جزيل الثواب في الدنيا وفي الآخرة، وأرجو أن الله -تعالى- ينصرنني إذا حافظت على هذه العبادة. هذا لسان الحال، يعني: ما تكلمت به بلسان المقال؛ ولكن هذا يدل عليه عملك، وعمل كل مسلم؛ أنه لا يعمل هذا الأعمال إلا لأجل أن يحصل له الأجر؛ وإن كان هناك من يعملها رجاء الثواب، وهناك من يعملها خوف العقاب، وهناك من يعملها محبة لله -تعالى- وشكراً له. برنا حديث في بعض الكتب أن الله -تعالى- يحضر ثلاثة من عباده، فيسأل أحدهم: لماذا تعبدت بهذه العبادات، وتقربت بهذه القربات، وعملت الصالحات؟ فيقول: يا رب.. قرأت في كتابك خير الجنة، وما فيها من النعيم، وما فيها من الثواب والأجر العظيم، والجزاء الأوفى، والنعيم المقيم، وما فيها من الحور، ومن القصور، ومن الأنهار والأشجار والثمار، وأنواع الملذات؛ فأتعبت نفسي، وأسهرت ليلي، وأطمت نهارى، وأكملت عملي، واجتهدت في هذا العمل، واجتهدت في الصالحات؛ حتى أحظى بدخول هذه الجنة التي رأيت صفتها. فيقول الله: هذه الجنة فادخلها، قد عملت عملاً لأجل الجنة فهذه الجنة. يؤتى بالثاني فيقال: لماذا تعبدت؟ فيقول: يا ربي.. قرأت في كتابك عذاب النار، وسمعت بما فيها من السعير، وما فيها من العذاب الأليم والحميم والغساق والزقوم، وما فيها من الإحراق، وما فيها من شدة العذاب؛ فاجتهدت في الهرب منها، فأنا أتعبت لها نفسي هرباً منها وخوفاً منها، وتعبدت بهذه العبادات، تعبدت بصلاة وصيام وصدقة وتبهد وأذكار وقراءة خوفاً من أن أكون من أهل هذه النار. فيقول الله تعالى: قد أثنيتك من هذه النار، وأجرتك منها، وليس هناك إلا دار الثواب فادخل دار الثواب، ادخل الجنة، وأنجيتك من النار. ويؤتى الثالث فيقال: لماذا تعبدت عبادتك هذه؟ فيقول: يا رب قرأت في كتابك...، وكثرة خيرك وفضلك على عبادك، فتعبدت محبة لك، حملتني على ذلك.. محبتك، محبة النعم، ومحبة المتفضل، والشكر له، وتعظيماً لك؛ لأنك ذو الجلال والإكرام؛ ولأنك الكبير المتعال، فأنت أهل أن تعبد وأن تحمد، وأن يركع لك ويسجد، فيقول الله تعالى: قبلت عبادتك، وهأنذا فانظر إلي، وهذه دار ثوابي فادخلها، فكل منهم عبد الله -تعالى- وأعطاه ما عبد، فالذي عبد طلباً للجنة أعطاه الله طلبه، والذي عبد خوفاً من النار أعطاه الله طلبه، والذي عبد محبة للمعبود وشكراً له أعطاه الله طلبه وقيل منهم. لا شك أن هذا هو حقيقة العبادة التي هي نوع من أنواع الدعاء، والتي تسمى: دعاء العبادة. فنقول: إن الآيات التي في القرآن في الأمر بالدعاء تتضمن النوعين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة. وأيضاً فإن الداعي يدعو الله -تعالى- يتمثل ذلك بلفظ الدعاء، فيقول: أدعوك يا رب لتغفر لي، أدعوك يا رب لتغفر لي، أدعوك يا رب لتقبل عبادتي، لتكثر حسنتي وتمحو سيئاتي، فيسمى فعله دعاء. وكذلك لو قال: أعبدك؛ فإن أعبدك فيها معنى أدعوك -أي- أدعوك دعاء عبادة. وبكل حال.. فإن هذه كلها من أجل العبادات، والتي لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل؛ بل هي حق الله -تعالى- فلا يدعى إلا الله.